



## العلاقة بين الفقه والتصوف

د . محمد سالم ولد الأمين  
الجامعة الأسمرية

### تمهيد

أثارت العلاقة بين الفقهاء والصوفية في الفكر الإسلامي جدلاً كبيراً منذ القرن الثاني الهجري ، وهو جدل مثلما أسال المداد أسال الدماء ، ذلك لأن أولئك المرابطين على أبواب الدلالات وحصونها لا يتورعون أبداً عن رشق من تسول لهم أنفسهم فتح أبواب أو مسارب دلالية جديدة .

وبالتالي فالخلاف بين الفريقين في نظرنا منشؤه لغوي تأويلي ، قبل أن يتطور إلى السلوك والممارسة ، فالنصوص النقلية المحكمة محدودة كما ، لكنها مفتوحة على التأويل والشرح والتفسير ، وأي محاولة لسد ذلك الانفتاح ستكون نتائجه خائفة قاتلة للقارئ والمقروء على السواء فضلاً عما ستلحقه براهن القراءة . ومما وسع شقة الخلاف نظر كلا الفريقين إلى منهج الذات ، ثم منهج الآخر بعين الرضا للأول ، وعين النقد الناقض للثاني ، وبالتالي تم الغض من عديد الخصائص التأسيسية في كلا الخطابين ، إما بسبب الجهل بها أو - هو الأغلب - بسبب تجاهلها ، وبخاصة عندما يتعلق الأمر بمنهج التصوف الذي يقوم معظمه على الذوق والشعور والإحساس ، وهي أمور أجمع علماء هذا الطريق وسالكوه على أنها لا تكتسب بالقراءة والتعلم ، بل بالمجاهدة والتأمل والانقطاع عما سوى الله في سبيلها . صحيح أن علم التصوف كما يقول ابن خلدون « من العلوم الشرعية الحادثة في الملة »<sup>(1)</sup> ، لكن حدوثه مدعوم بأدلة مسوغة في السنة

(1) ابن خلدون : المقدمة ، مؤسسة الأعلمي للنشر لبنان بيروت ( د . ت ) ص : 467.

والآثار الصحيحة . وهي أدلة أيضاً طالما كان تأويلها مثار جدل على أساس أن خير القرون قرن النبي ﷺ من جهة ، وأن أفضل عبادة هي تلك التي مارسها النبي ﷺ وصحابته من بعده من جهة ثانية . وهي عبادات خلت من المظاهر التي كان عليها متصوفة القرون اللاحقة . وهذا ما جعل المتشددین من الفقهاء ينظرون إليها على أنها أمور مبتدعة دون أن يهتموا بدلالات حديث جبريل المتفق عليه الذي فصل في مراتب الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان من جهة ، وأن ثمة آثاراً صحيحة وأحاديث وآيات كذلك تمتدح عمل القلب تأملاً وتفكيراً ، وتؤكد أن عمله الخالص لحظة واحدة يعدل العمل الظاهر للجوارح عشرات السنين من جهة ثانية . في هذا الجو الحماسي المتوتر انبرى كل من الفريقين للدفاع عن منهجه وتصوره وتأويلاته . ولم تخل تلك المساجلات من شطط في الحكم والتقدير لدى الأنصار والخصوم على السواء .

وكاد القوم - لولا إسهامات بعض الموفقين والمعتدلين - أن يغفلوا عن كون المنابع والأصول لكلتا الرؤيتين مشتركة موحدة ، وبالتالي فلا فرق بين التصورين على مستوى النصوص والمصادر ، لكن الفرق هو في زوايا الرؤية وما ينجم عنها من ممارسات وسلوكيات ، وهي متعلقة بأسماء الفاعلين بالدرجة الأولى .

من هذا المنطلق جاءت هذه الورقة لتؤكد تطابق الرؤيتين الفقهية والصوفية ، ولتشير إلى أسباب الخلاف ومنشئه .

ولما رأينا أن معظم التصانيف الصوفية تكاد تجمع على التأكيد على ما طلبه الفقهاء من شروط كالتعلم والاتباع ، ووزن كل الأعمال الظاهرة بميزان الشرع ، رأينا أن نتبع في هذه الورقة منهج العرض والمقارنة من خلال الوقوف على آراء ثلاثة من أشهر كتب الصوفية ، مشفوعة بآراء ثلاثة من أبرز الفقهاء الذين عرضوا لسلوك هؤلاء القوم ، خاتمين هذا العرض برأي الفقيه المفكر ابن خلدون الذي لخص في مقدمته ما آل إليه التصور الصوفي من المنظور الإسلامي المعتدل .

### أولاً : الرؤية الصوفية ، بين حضيض المجاز ويفاع (1) الحقيقة

بدأنا بالتصوف لأنه واقع في الدراسات التي تتناول علاقته بالفقه موقع التساؤل، فالفقهاء إنما عرضوا لمنهج الصوفية وسلوكهم لما رأوا منهم ما اعتبروه مروقاً عن نهج

(1) اليفاع : من فوع ، وهو ارتفاع الشيء وعلوه وقمته ، قال ﷺ : (احبسوا صبيانكم حتى تذهب فوعة العشاء) .

السلف .

ونشير إلى أنه ليس من مشاغلنا هنا الحديث عن تأصيل لفظة «التصوف» هل هي من الصُّفّة أو من الصفاء أو نسبة إلى لبس الصوف ، كما لن نهتم بأسباب نشأة الظاهرة الصوفية ، هل هي ردة فعل ضد الانغماس في تيار الترف أم غير ذلك ، فهذه أمور أشبعت بحثاً . لكننا عوضاً عن ذلك سنبحث الظاهرة منهجاً من جهة ونحاول إبراز التوافق بين الفقه المعتدل والتصوف السني الصحيح ، من جهة ثانية

### 1. اللمع ، تمييز المعتدلين والتحذير من المغالطين

ليس كتاب «اللمع»<sup>(1)</sup> في التصوف لأبي نصر السراج الطوسي (ت : 378هـ) أول كتاب فعلي في المصنفات الصوفية ، فلقد سبقته تصانيف قليلة أهمها الرعاية لحقوق الله للمحاسبي ، لكن أهمية اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي تنبع من أنه يمكن أن يعد أول الكتب التي ظهرت بعد ذهاب جيل الصوفية الشفويين الأول ، كالجنيد والحسن البصري وسفيان الثوري والفضيل بن عياض وذي النون المصري ، والذين اتفق الأنصار والخصوم على سلامة منهجهم وموافقته للسنة . كما أن كتابه ظهر بعد محنة قتل الحلاج (309هـ) وما تزامن معها وأعقبها من تطور في سلوك المتصوفة ولغتهم ، فجاء الطوسي ليعرف بحقيقة المنهج أولاً ، ويؤكد تطابقه مع الحقائق الفقهية ثانياً ويحذر وينبه إلى الأغلاط والانحرافات التي أدخلها الأدعياء في هذا الطريق ، منذ نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع .

ويبدو قلقه في الكتاب جلياً إزاء ما لحق بالظاهرة والسلوك الصوفيين مما يظهر أنه كان شاهداً على أبرز التطورات التي لحقتهم في القرنين الثالث والرابع حيث يؤكد أنه «... ينبغي للعاقل في عصرنا أن يعرف شيئاً عن أصول هذه العصابة [يقصد أهل التصوف] وقصودهم... وطريقة أهل الصحة والفضل منهم حتى يميز بينهم وبين المتشبهين بهم والمتلبسين بلبسهم والمتسمين باسمهم حتى لا يغلط ولا يآثم... واعلم أن في زماننا هذا قد كثر الخائضون في علوم هذه الطائفة وقد كثر أيضاً المتشبهون بأهل التصوف»<sup>(2)</sup> . وقد عايش الطوسي تعدد المواقف حول التصوف بين من أقروه ومن

(1) أبو نصر السراج الطوسي : اللمع ، تحقيق : د . عبدالحليم محمود وطه عبدالباقى مكتبة الثقافة الدينية ،

القاهرة ، مصر (د . ت)

(2) اللمع ، م . س ، ص : 18 ، 19

اعتبروه زندقة ، لكنه وهو نفسه المتحدث من المنظور التخصصي يرى<sup>(1)</sup> أن أهل هذا الطريق هم أهل الإحسان المشار إليهم في حديث جبريل المشهور ، ويذهب إلى أن « طبقات الصوفية متفقون مع الفقهاء وأصحاب الحديث . . . لم يخالفوهم في معانيهم ورسومهم »<sup>(2)</sup> لكن ميزة الصوفية في نظره أن منهجهم عندما يختلف الفقهاء وتتعدد آراؤهم يكون عندئذ « مذهبهم الأخذ بالأحسن والأولى والأتم احتياطاً للدين وتعظيماً لما أمر الله به . . . وليس من مذهبهم النزول إلى الرخص »<sup>(3)</sup> .

هذا السلوك الاحتياطي التأملي أكسبهم في نظره ملكة استنباط « لطائف » لا يتأتى إدراكها إلا لهم . ولعل الخوض في تلك اللطائف والدقائق هو ما جعل « بعض المترسمين بعلم الظاهر ينكرون عليهم لأنهم لم يعرفوا من كتاب الله تعالى ، ولا من أخبار رسول الله ﷺ ، إلا ما كان في الأحكام الظاهرة ، وما يصلح للاحتجاج على المخالفين » ، أما الصوفية فإنهم يذهبون إلى أبعد من ذلك ، لكن ذهابهم هذا ويغالهم في النصوص والظواهر ، هو في نظر الطوسي مضبوط بالشرع وأصوله ، حتى لا ينحرف بأصحابه إلى مزالق الهوى والتحريف .

لذا نجده يفرد جزءاً كبيراً من كتابه للحديث عن المتشبهين بالصوفية ، والذين تعددت أغلاطهم في الأقوال والأفعال ، وهو يرى أنهم ثلاث طبقات : طبقة غلطوا في الأصول لقلّة معرفتهم بأصول الشريعة ، وطبقة غلطوا في الفروع والآداب والمعاملات ، وطبقة كانت أغلاطهم هفوات عادوا عنها إلى الصواب بعد إدراكهم للغلط . لكن أعتى هؤلاء غلطاً هم الذين ( غلطوا في الأصول فهؤلاء لا يسلمون من الضلال ، ولا يرجى لدوائهم داء إلا أن يشاء الله »<sup>(4)</sup> . لأنهم نبذوا العلم وراءهم .

## 2. الكلاباذي ، التعرف لمذهب أهل التصوف

يعد كتاب « التعرف لمذهب أهل التصوف »<sup>(5)</sup> للكلاباذي (ت : 380هـ) متكاملًا مع اللمع ومتزامنًا مع ظهوره . فكلاهما يعد في طليعة التأليف التي

(1) اللمع م . س ، ص 21 ، 22

(2) نفسه ص 28

(3) نفسه ص 28

(4) نفسه ص 519

(5) الكلاباذي (أبو بكر محمد بن إسحاق) : التعرف لمذهب أهل التصوف ، طبعة الخانجي .

جاءت بعد العهد الشفوي لكبار المتصوفة في القرنين الثاني والثالث ، وكلاهما لا يخفي انزعاجه مما لحق بالتصوف من تشويه وتحريف ، بسبب دخول عديد الجهال فيه وتسميهم باسمه ، فلم يزالوا يكثرون « إلى أن ذهب المعنى وبقي الاسم وغابت الحقيقة . . . فادعاه من لم يعرفه وتحلى به من لم يصفه وأدخل فيه ما ليس منه ونسب إليه ما ليس فيه . . . فنفرت القلوب منه وانصرفت النفس عنه فذهب العلم وأهله فصار الجهال علماء » (1) . لكن الكلاباذي يتميز كتابه بأنه من بواكير كتب القوم التي تناولت أحوالهم ومقاماتهم التي تعرض لهم أثناء عباداتهم وتأملاتهم ، مؤكداً أن هذه الأحوال وتلك المقامات « قد اصطالحوا على ألفاظ تعارفوها فيما بينهم ورمزوا بها » (2) فلا يدرك محمولها الدلالي ، إلا من ذاق ذلك وحل نفس المقام .

وعلى الرغم من أن الكلاباذي قد نبه إلى مسألتين جوهريتين هما :

قضية الرمز اللغوي وماله من دور في « العدول » بتصريحاتهم « الحالية » عن ظاهرها المجازي إلى باطنها الحقيقي ، واستحالة الحكم على تلك الأحوال والمقامات حكماً علمياً موضوعياً لأنها نابعة تابعة « للذوق » ، والإحساس الحدسي ، وبالتالي فمن لم يذق ذلك يظل بعيداً عن حقائقه مهما قرأ عنها ، فبالرغم من إشارات هذه نجده يربط كل ذلك بالعلم الشرعي ، الذي هو الأساس لكل ممارسة .

فهو يقول على سبيل التأكيد « اعلم أن علوم الصوفية : علوم الأحوال والأحوال مواريث الأعمال ، ولا يرث الأحوال إلا من صحح الأعمال . وأول تصحيح الأعمال معرفة علومها ، وهي علم الأحكام الشرعية من أصول الفقه من الصلاة والصوم وسائر الفرائض إلى علم المعاملات وسائر ما أوجب الله تعالى وندب إليه » (3) ، فهذه هي البداية السليمة لتطهير القلب ، حتى يتلقى النفحات الربانية وتشرق فيه أنوار الحق .

### 3. الغزالي ، الحجة ثم التسويغ للتصوف

لا يكاد يذكر أبو حامد الغزالي (505هـ) إلا ويذكر « إحياءه » للتصوف « وإنقاذه » لأصحابه . فلقد أدرك من أسرار التصوف وحقائقه ما لم يدركه كثير من أهل زمانه ، وهو يؤكد في الإحياء والمنقذ من الضلال ومشكاة الأنوار أنه بعد أن تضلع في

(1) الكلاباذي م . س ، ص 4

(2) نفسه ، ص : 58 ، 59

(3) نفسه ، ص : 58

علوم الشريعة ، أصولها وفروعها ، عرج على المجاهدات لتخليّة القلب ثم تحليلته بحقائق الإيمان ومعارف الإحسان ، فأدرك بعد ذلك الانقطاع أن هذا العلم لا يمكن أن يتكلم فيه أو يعبر عن أحواله ، إلا من ذاقه وعاش تجاربه ، أما التعلم والذوق ، فلا يجديان في ذلك شيئاً ، كالطبيب الذي قد يكون مريضاً هو نفسه ، مع أنه عارف لحدود الصحة والمرض على السواء .

من هنا يجزم الغزالي في نهاية مشواره العلمي قائلاً : « إن القدر الذي أذكره لينتفع به أنني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى ، خاصة أن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق . . . فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهريهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به » (1) .

هذا الإقرار الصريح المشفوع بالأحاديث التحليلية المستفيضة في مكاشفات الصوفية وأحوالهم وأقوالهم وأفعالهم ، مثل في حد ذاته « حجة » قوية لأرباب التصوف والسالكين نهجه من جهة وسوغه في أفواه الفقهاء المتشددین من جهة أخرى ، لأن أبا حامد الغزالي معرفة شرعية لا يمكن تنكيرها ، ورقم فكري لا يمكن تجاوزه .

لكن إذا كان القرن الرابع قد شهد هجوماً عنيفاً على مناهج الصوفية ، فمن هم هؤلاء الذين يعينهم الغزالي ويدافع عنهم ويلتمس لهم العذر ؟ .

إن من يلاحظ « إحياء » الغزالي يجد أنه ككثير من مصنفات القوم . قد ابتدأ أولاً بالحديث عن العبادات والمعاملات ، ثم خصص الجزء الثالث للحديث عن الزهد والتصوف وإصلاح القلوب . والمتأمل لهذا الجزء الذي يعد من أهم النصوص في هذا الموضوع في تاريخ الفكر والثقافة الإسلاميين ، يجد أنه يحذر ويجزم في آن قائلاً إن « رياضة النفس وتهذيبها إذا لم تتقدم بحقائق العلوم [الشرعية] نشبت بالقلب خيالات فاسدة تطمئن النفس إليها مدة طويلة . . . فكم من صوفي سلك هذا الطريق ، ثم بقي في خيال واحد عشرين سنة ، ولو كان قد أتقن العلم من قبل لانفتح له وجه التباس ذلك الخيال في الحال . فلاشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب إلى الغرض . . . ولو ترك الإنسان تعلم الفقه ، وزعم أنه يصير فقيهاً بالوحي والإلهام ، فقد ظلم نفسه وضيع

(1) أبو حامد الغزالي : المنقذ من الضلال ، تحقيق وتصحيح : سعد كريم الفقي ، دار بن خلدون ، الاسكندرية ، مصر (د ، ت) .

عمره . . . بل لا بد أولاً من تحصيل ما حصله العلماء . . . ثم لا بأس بعد ذلك بالمجاهدة»<sup>(1)</sup>، ثم يواصل حديثه المستفيض عن أهمية العلم، وضرورته لسلامة كل ممارسة قلبية .

لكن الغزالي مع ذلك يدعو من أشرق في قلوبهم أنوار المعارف اللدنية، وذاقوا لذة الحب الإلهي، و«ارتقوا من حضيض المجاز إلى يفاع الحقيقة»<sup>(2)</sup> أن يجتهدوا في كتم ما يكشف لهم الله من أسرار «فلقد قال بعض العارفين إن إفشاء سر الربوبية كفر، بل قال سيد الأولين والآخرين ﷺ «إن من العلم كهينة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله، فإذا انطلقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله . ومهما كثر أهل الاغترار وجب حفظ الأسرار على وجه الأسرار من الأشرار»<sup>(3)</sup> . وربما يشهد لهذا في نظرنا ماورد في قصة يوسف ﷺ، فليس عبثاً أن يشير الله ﷻ على لسان نبيه يعقوب ﷺ بنهي يوسف عن إفشاء السر: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾<sup>(4)</sup>.

لذا نجده ينصح من «لا بستة تلك الحالة أن لا يزيد على أن يقول [إذا سئل]: وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر»<sup>(5)</sup>

إلا أنه برغم دعواته هذه للأخذ بالعلم والاجتهاد في حفظ الأقوال والأفعال وضبطها بميزان الشرع، نجده يلتمس العذر لأولئك الصوفية الذين غلبتهم (الحال) «فسكروا سكرًا شديداً رفع دونه سلطان عقولهم فقال أحدهم «أنا الحق» وقال آخر «ما في الجبة إلا الله» . وكلام العشاق في حال السكر يطوى ولا يحكى . . . وتسمى هذه الحالة بلسان المجاز «اتحاداً» ولسان الحقيقة «توحيداً»<sup>(6)</sup> .

(1) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 2001، ج 3، ص 19

(2) أبو حامد الغزالي: مشكاة الأنوار ومصفاة الأسرار، تحقيق: الشيخ عبدالعزيز عز الدين، طبعة عالم الكتب، بيروت ط 1، 1986، ص: 137

(3) نفسه، ص: 117، 118

(4) يوسف: من الآية 5 .

(5) المنقذ من الضلال، م . س، ص 34، 41

(6) مشكاة الأنوار، م . س، ص: 139، 140

وتشكل هذه العلاقة بين الحقيقة ، والمجاز في اللغة الصوفية محوراً أساسياً ، لا يمكن تجاوزه عند دراسة أي عنصر من عناصر هذه الظاهرة<sup>(1)</sup> . وهذا ما جعلها تحضر بقوة في حجج الأنصار والمدافعين عن سلوك القوم وأقوالهم كالغزالي ومن هذا حذوه .

إننا نستنتج من آراء هؤلاء الأعلام الثلاثة - كما هو الحال عند غيرهم من أقطاب الصوفية المعتدلين - أن السير في طريق التصوف مرحلة لاحقة لإكمال طريق التعلم الشرعي الفقهي تحديداً . وأي تجربة لا تسلك السبيل الأولى إلى الثانية يكون مصيرها الزيغ والفتح الشيطاني الظلماني لا الرباني النوراني<sup>(2)</sup> . وهذا ما وجدنا أن الفقهاء ، حتى أولئك المتشددین منهم أحياناً تجاه الظاهرة الصوفية وسلوك أصحابها ، لا يبتعدون عنه ، بل يزكون أصحابه ويعتبرونهم القدوة والسلف الصالح للأمة .

### ثانياً : الفقهاء بين سلطة النصوص وسلطات الواقع

الشريعة تعامل مع الظاهر وحكم به وله ، لكنها في الوقت نفسه ليست نفيّاً أو إنكاراً للباطن وأحواله ، بل إقرار بما وافق منطق النصوص الشرعية ، تلك النصوص التي تحتم على العلماء وولاة الأمور التصدي بحزم لكل البدع المنكرة وكذا لأولئك الذين يجحدون ما علم من الدين ضرورة .

هؤلاء الفقهاء بدأوا يشهدون منذ بداية القرن الثاني وبداية القرن الثالث مظاهر تعبدية وأخرى قولية لم تؤلف عن السلف الصالح الذي لاخلاف على أن عبادتهم أفضل العبادات ، وهديهم خير الهدي ، فما كان من هؤلاء العلماء إلا أن تصدوا لمظاهر التصوف الشعبي الطرقي الذي أحسوا - أو أحس بعضهم - أنه يهدد سلطتهم ومكانتهم ، وبخاصة السياسية والاجتماعية . وقد كان هذا التصدي مختلفاً بحسب الموقع والخلفية

(1) للأسف لم يستوعب نصر حامد أبو زيد هذه الفكرة في محاولته لدراسة مشروع الغزالي ، فبدأ وانتهى بالتحامل عليه والتقليل من شأنه بطريقة غير موضوعية وغير مقنعة ، راجع كتابه : النص ، السلطة ، الحقيقة « الفكر الديني بين إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط 2 ، 1997 ، ص: 193 ، 197

(2) إن المكاشفات التي تحدث للإنسان وكذا التجليات التي يرى أو تتراءى له منها ما مصدره الفراسة الإيمانية وهي نور يقذفه الله في قلوب عباده المؤمنين خاصة ، ومنها ما منبعه الفراسة الرياضية التي تحصل بالجوع والسهر والعزلة ويشترك في هذه المؤمن والكافر ، وثمة الفراسة الخلقية النابعة من القريحة كفراسة الأطباء عندما يستدلون بالخلق عن الطبائع الإنسانية .

وكذا زاوية النظر .

وقد أثرنا هنا أن ننظر إلى آراء ثلاثة فقهاء عرف عنهم التشدد إزاء السلوك والمنهج الصوفيين ، وهدفنا هو أن نرى إلى أي مدى تتقارب النتائج المحددة حول السلوك القولي والفعلية لدى كلا الفريقين .

## 1. ابن تيمية وابن القيم ،

### الدعوة إلى الاعتدال والتحذير من مصائد الشيطان

يعد كتاب الاستقامة لابن تيمية أبرز كتبه التي تناولت بالحجاج والتحليل آراء الصوفية ومنهجهم . فهو يناقش في هذا الكتاب الرسالة القشيرية لأبي القاسم عبد الكريم القشيري (ت : 465) . وهي رسالة من أبرز كتب القوم التي تتناول شرح أحوالهم ومقاماتهم ومختلف مظاهر سلوكهم .

وبرغم الخلاف الكلامي بين ابن تيمية والأشاعرة فإنه يعلق ، بعد ما ذكره القشيري من أن اعتقاد مشايخ الصوفية يوافق اعتقاد كثير من المتكلمين الأشعرية ، بقوله : « وهذا الاعتقاد غالبه موافق لأصول السلف وأهل السنة والجماعة »<sup>(1)</sup> . بل نجده في معرض حديثه عن جمعوا كلام مشايخ الصوفية يمتدح كتاب « التعرف » للكلاذبي بقوله : « وهو أجود مما ذكره أبو القاسم وأصوب وأقرب إلى مذهب سلف الأمة وأتمتها وأكابر مشايخها »<sup>(2)</sup> ثم يذكر بعده معمر بن زياد الأصفهاني شيخ الصوفية (ت 418 هـ) وأبا عبد الرحمن السلمي (412 هـ) بقوله « هما في ذلك أعلى درجة وأبعد عن البدعة والهوى »<sup>(3)</sup> .

ويكفي ابن تيمية إقراراً بالتصوف منهجاً وممارسة أن يمتدح هذه المصنفات المعروفة في تاريخ التصوف الإسلامي .

فالرسالة تتميز بتحليل المقامات والأحوال الناجمة عن الاجتهاد في العبادة والتعرف لمذهب أهل التصوف رأينا كيف يتنزل في صميم تمجيد سلوك سلف القوم

(1) ابن تيمية : الاستقامة ، تحقيق : محمد رشاد سالم ، دار الفضيلة للنشر ، دار ابن حزم ، المملكة العربية السعودية - الرياض ، ط 1 ، 2000 ، ص 83 .

(2) نفسه ص 83 .

(3) نفسه ص ، 83 ..

ويلتمس العذر لمتأخريهم ويحذر من الأدعياء والمتشبهين بهم ، وكذلك السلمي في مصنفاته وتفسيره الذي أبان فيه عن فهم الصوفية للقرآن وتأويلاتهم له .

إن ابن تيمية بتزكيتة لهؤلاء الأعلام يزكي بذلك المنهج الصوفي المعتدل المضبوط بالشرع ، وهذا ما صرح به بعد قول القشيري « اعلّموا أن شيوخ هذه الطائفة [يعني المتصوفة] بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد صانوا بها عقائدهم عن البدع ، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل » فيعلق ابن تيمية على هذا « قلت هذا كلام صحيح » (1) .

ويمتدح ابن تيمية سلوك مشائخ الصوفية الأول كالجنيد والحسن البصري والكرخي والبسطامي ، لكنه لا يتسامح مع الشطح والسكر الموجبين لصدور أقوال هي في نظره تماماً كما قال الغزالي : « كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائعة وليس وراءها طائل . وهي غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط في عقله وتشوش في خياله لقلة إحاطته . . . ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام » (2) . كما أنه يذم بعض المتأخرين من الصوفية الذين « يقدمون علمهم بالذوق والوجد على موجب العلم المشروع . . . ولا ريب أن هذا من اتباع الهوى بغير هدى من الله وهو مما ذم الله به النصاري الذين يضارعهم في كثير من أمورهم المنحرفون من الصوفية والعباد » (3) ، وهؤلاء في نظره يخالفون سلوك « المهتدين من مشايخ العباد والزهاد الذين يوصون باتباع العلم المشروع ، كذلك الفقهاء والعلماء يوصون بالأخذ من العلم الذي يسلكه أهل الاستقامة من العباد والزهاد » (4)

أما تلميذه ابن قيم الجوزية (751هـ) فقد اهتم بأمور صلاح القلب وتربيته ، وجعل مناط ذلك كله الأخذ بالعلم الشرعي ، الذي جعل اتباعه وتعلمه معيار النجاة من « مصايد الشيطان » والموجه الأمثل إلى تحقيق خصلة الاعتدال البعيدة عن نزعتي التفريط والغلو اللتين يدعو الشيطان إليهما ، وبأيهما ظفر قنec .

ومن هذا المدخل ، مدخل العلم والاعتدال ، يهجم ابن القيم على متأخري

(1) الاستقامة ، م . س ، ص : 91 .

(2) نفسه ، ص : 120 ، 121 .

(3) نفسه ، ص : 100 .

(4) نفسه .

الصوفية الذين « أوقعهم الشيطان في أنواع الأباطيل والترهات ، وفتح لهم أبواب الدعاوى الهائلات وأوحى إليهم أن وراء العلم طريقاً إن سلوكه أفضى بهم إلى كشف العيان وأغناهم عن التقيد بالسنة والقرآن » (1).

ويشير ابن قيم الجوزية في معرض تأكيده على العلم والاتباع إلى أن جهال الصوفية هؤلاء بعيدون عن نهج السلف الصالح من مشايخ الصوفية الزهاد كالجنيد والحسن البصري والداراني وأبي بكر الدقاق الذين أجمعوا على أن (من ضيع حدود الأمر والنهي في الظاهر حرم مشاهدة القلب في الباطن) (2).

## 2. ابن الجوزي ، هاجس التلبيس وقلق الموضوعية

يعد أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (510 - 597هـ) من أشد الفقهاء على المبتدعين من الزهاد والصوفية . وهو لا يتردد في انتقادهم ونعتهم بأسوأ النعوت عندما يتعرض إلى سلوكهم وأقوالهم المجافية للشرع .

لكن المطالع لمصنفات ابن الجوزي يلاحظ قلقاً مهيماً عليه من انتشار طرق التصوف الشعبي ، وخوفاً يبنياً من انتشار ما يراها بدعاً شنيعة منشؤها الجهل واتباع الهوى . ولئن كانت لهذا الخوف أسباب شرعية - كما يبدو - فإن الأسباب السياسية والاجتماعية لم تك قط ببعيدة .

فلقد كانت لابن الجوزي رجل في ركاب السلطان ، فكان اتساع المد الصوفي داخل الأوساط الاجتماعية يهدد تلك المكانة أو على الأقل يزاحمها بإبراز سلطة دينية جديدة مشرعة على الآفاق غير المتناهية للتأويل ؛ غايتها ووسيلتها « القلب » وأحواله .

انتقد ابن الجوزي سلوك المتأخرين من الصوفية في زهدهم في المباحات والعزوف عن التمتع بما أحل الله وشرع كاللباس الحسن والزواج والمأكل الطيب واقتناء الجميل ، بل ونجده في « صيد الخاطر » (3) يسخر سخرية مرّة - كعاداته - من عزوف بعض هؤلاء العباد الصوفيين عن طعام تشتهيه نفسه بدعوى أن في ذلك ترويضاً وتربية

(1) ابن قيم الجوزية (شمس الدين محمد بن أبي بكر) إغاثة اللفهان من مصايد الشيطان ، تحقيق : محمد

حامد الفقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط2 - 2001 ص 117

(2) إغاثة اللفهان ، م . س ، ص : 121

(3) ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن) ، صيد الخاطر ، تحقيق : محمد عبد الرحمن عوض ، دار الكتاب

العربي ، بيروت - لبنان ، ط9 ، 2000 ص: 66 ، 67 .

لها ، ويحتاج هؤلاء بأقوال وأعمال سلف الصوفية الزهاد ، كسفيان الثوري الذي كان يجتهد في تناول أطايب الطعام قائلاً (إن الدابة إذا أحسن إليها عملت) (1) . ثم يعلق على سلوك الزهاد الصوفيين مادحاً ومرغباً . أما « ما حدث في الزهاد وبعدهم من هذا الفن فأمر مسروقة من الرهبانية » (2) .

لذا فهو يرجع كل انحرافهم وتنطعهم إلى ترك العلم والرغبة عن التعلم ، مؤكداً أن هذه الزاوية هي التي دخل إبليس عليهم منها إذ « زين لهم التعبد ليشغلهم عن أفضل التعبد وهو العلم . . . وهذا من خفي حيل إبليس . . . فأظهر لهم أن المقصود العمل لا العلم نفسه وخفي على المخدوع أن العلم عمل وأي عمل » (3) .

لكن ابن الجوزي مع ذلك يمتدح تصوف السلف ذلك التصوف المعتدل المؤسس على العلم (كدقائق الجنيد وإشارات الشبلي) (4) . بل يصرح كذلك أن « الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي بصلاح القلب إلا أن يمزج بالرقائق والنظر في سير السلف الصالح لأنهم تناولوا مقصود النقل وخرجوا عن صور الأفعال المأمور بها إلى ذوق معانيها والمراد بها . وما أخبرتك بهذا إلا بعد معالجة وذوق » (5) . بهذا التصريح في « صيد الخاطر » الذي يعد من أواخر مؤلفاته يقر ابن الجوزي بسلامة النهج الصوفي المعتدل وبضرورة إصلاح القلب بالاختلاف إلى الزهاد العارفين وقراءة سيرهم .

وهو وإن حذر من « زهاد زمانه » المبتدعين فإنه كذلك يذم الفقهاء والمحدثين المجادلين المتظاهرين بالعبادة والورع (6) .

وتتجلى نزعة الصوفية أيضاً من خلال لغته وتحليلاته التي أبان عنها في كتابه « التبصرة » (7) . هذا الرأي هو الذي استقر عليه ابن الجوزي ويعد متأخراً ، أي

(1) صيد الخاطر ، م . س ، ص : 67 .

(2) نفسه ، ص : 67

(3) نفسه ، ص : 98

(4) نفسه ، ص : 116

(5) نفسه ، ص : 200

(6) نفسه ، ص : 410

(7) ابن الجوزي : التبصرة ، تحقيق : مصطفى عبد الواحد ، دار الكتاب المصري اللبناني ، ط 1 ، 1970 ، ص : 120 - 121 .

أحدث من رأيه في «التلبيس» بدليل إشارته إلى هذا الكتاب في «صيد الخاطر» .

لذا قدمنا آخر آرائه ، أما رأيه في «التلبيس» فنشير إليه من باب التوضيح نظراً إلى ما فيه من التحامل وعدم الموضوعية أحياناً ، ولعل ذلك - في نظرنا - راجع إلى أن التأليف في فترة الشباب يختلف عنه في فترة النضج ، إذ تتسم الأولى بالاندفاع والتسرع في إصدار الأحكام ، وهذا ما أبانت عنه أحكامه وآراؤه اللاحقة .

ففي «التلبيس» يعيب على الصوفية تنطعهم وجهلهم وصدودهم عن العلم ، ويؤكد أن التصوف الحقيقي هو ما كان عليه أوائل القوم ، ويستدل عليه بتعريف الجنيد الذي قال فيه «التصوف هو الخروج عن كل خلق رديء والدخول في كل خلق سني . وعلى هذا كان أوائل القوم فلبس إبليس على من بعدهم من تابعيهم ، فكلما مضى قرن زاد طمعه في القرن الثاني فزاد تلبيساً عليهم إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن ، وكان أصل تلبيس إبليس أنه صددهم عن العلم» (1) .

ثم يواصل ابن الجوزي انتقاده لسلوك الصوفية ومصنفاتهم بدءاً من الحارث بن أسد المحاسبي الذي وصفه بأنه أُلّف في الجوع والوسواس والموت ، ثم جاء بعده من أُلّف في السماع والوجد والخيالات الفاسدة ، وما زال إبليس يلبس عليهم حتى «جاء أبو عبد الرحمن السلمى فصنف لهم كتاب السنن وجمع لهم حقائق التفسير فذكر عنهم فيه العجب . . . ثم صنف لهم أبو نصر السراج كتاباً سماه اللمع ذكر فيه من الاعتقاد القبيح والكلام المرذول . . . ثم جاء أبو نعيم الأصبهاني فصنف لهم كتاب «الحلية» فذكر في حدود التصوف أشياء منكورة قبيحة ولم يستح أن ذكر في الصوفية . . . شريحاً القاضي والحسن البصري وسفيان الثوري وأحمد ابن حنبل . وكذلك ذكر السلمى في طبقات الصوفية الفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم ومعروف الكرخي فجعلهم من الصوفية» (2) .

إن ابن الجوزي بامتداحه لهؤلاء القوم يمتدح سلف الصوفية الذين يأتي هؤلاء في طليعتهم ، وبالتالي فهو إنما يعيب على المتأخرين منهم . ثم إن وسمه لبعض مصنفاتهم بالفاسدة والقبيحة والمرذولة يعد عملاً غير موضوعي خصوصاً وأن هذه الكتب تمتدح

(1) ابن الجوزي ، تلبيس إبليس ، تحقيق : محمد بن الحسن بن إسماعيل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثانية 2002 ، ص: 177 ، 180 .

(2) نفسه .

القوم الذين عدّهم هو نفسه سلفاً صالحاً ومثالاً للتصوف والزهد السليمين .

وما ذكر عن المؤلفات السابقة ذكره عن إحياء الغزالي الذي زعم أنه « ملأه بالأحاديث الباطلة وهو لا يعلم ببطالانها . . . ثم إنه خرج فيه عن قانون الفقه » (1).

إن الغزالي الحجة أضلّع من ابن الجوزي في الفقه والحديث وقد بدأ إحياءه بمجلد خصصه للفقه ، كما أن الأحاديث الضعيفة التي ساقها كان عالماً بما فيها من ضعف ، لكن سوقه لها كان على أساس الترغيب في مضمونها الخلقي ، كما قال هو والمحققون من بعده . إن لغة ابن الجوزي في التلبيس لغة مشحونة بالذاتية والتباين فتارة يقر بالظاهرة وتجلياتها وتارة يحمل على بعض منظرها دون تقديم أدلة موضوعية مقنعة .

إن الخلاصة التي نخرج بها من هذا العرض الموجز لآراء الفقهاء والمتصوفة أن الفريقين متفقان في النتيجة وأن الخلاف بينهما لفظي شكلي . فكلاهما يشترط العلم والمعرفة بالأحكام الشرعية شرطاً ضرورياً ضابطاً لسلامة كل مجاهدة أو سلوك صوفي . هذا ما صرح به الفقهاء والصوفية على السواء . فالفقه إذن سابق وممهّد للتصوف وهذا الأخير هو مصب الأول ونهايته الحتمية .

لذا فقد ذم كل من الفقهاء والمتصوفة السلوك الذي كان عليه متأخرو الصوفية الجهال المتطعنين الدامنين للعلم . هذا الموقف لخصه المفكر الفقيه المتصوف ابن خلدون في مقدمته حيث قال في بداية حديثه عن التصوف « هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة وأصله وإن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية ، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله . . . ثم لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم ، واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم ، إذ الأوضاع اللغوية إنما هي للمعاني المتعارفة ، فإذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف اصطلاحنا عن التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه منه . . . وصار علم الشريعة على صنفين : صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا وهي الأحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات ، وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة والكلام في الأذواق والمواجد . . . وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم » (2).

(1) نفسه .

(2) ابن خلدون ، المقدمة ، م . س . ص : 467 ، 469

وبعد حديثه عن ضرورة العلم والاستقامة لأي من المنهجين نجده يشير إلى ما لحق التصوف بسبب المنتسبين إليه لاحقاً من الجهال المتطعين ، لكنه يقف عند ردود الفقهاء على المتصوفة ليقول : إن كلام الفقهاء ليس على إطلاقه ، فهو إنما يشمل أربعة مواضع (1) :

1. فأما الكلام في المجاهدات والمقامات وما يحصل من الأذواق والمواجد ومحاسبة النفس فأمره لا مدفع فيه لأحد وأذواقهم فيه صحيحة والتحقق بها هو عين السعادة .

2. وأما الكلام في كرامات القوم وإخبارهم بالمغيبات فأمر صحيح غير منكر وإن مال بعض العلماء إلى إنكاره فليس ذلك من الحق .

3. وأما الكلام في الكشف وإعطاء حقائق العلويات فأكثر كلامهم فيه نوع من المتشابه لما أنه وجداني عندهم ، وفاقد الوجدان عندهم بمعزل عن أذواقهم فيه ، واللغات لا تعطي له دلالة على مرادهم منه . . . . فينبغي أن لا نتعرض لكلامهم في ذلك ونتركه فيما تركناه من المتشابه . . . .

4. وأما الألفاظ الموهمة التي يعبرون بها عن الشطحات ويؤاخذ هم بها أهل الشرع ، فاعلم أن الإنصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحس ، والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصده ، وصاحب الغيبة غير مخاطب والمجبور معذور . فمن علم منهم فضله واقتداؤه حمل على القصد الجميل من هذا كما وقع لأبي يزيد وأمثاله ، ومن لم يعلم فضله ولا اشتهر فمؤاخذ بما صدر عنه من ذلك إذا لم يبين لنا ما يحملنا على تأويل كلامه ، وأما من تكلم بمثلها وهو حاضر في حسه ولم يملكه الحال فمؤاخذ أيضاً ، ولهذا أفتى الفقهاء وأكابر المتصوفة بقتل الحلاج . . . . وسلف المتصوفة من أهل الرسالة ، وأعلام الملة لم يكن لهم حرص على كشف الحجاب إنما همهم الاتباع والاقتداء ما استطاعوا ، ومن عرض له شيء من ذلك أعرض عنه ورأى أنه من العوائق والمحن .

### خاتمة : التصوف اليوم

التصوف كما رأينا تجربة روحية ذوقية علمية سامية لا تنال بالتطبع

(1) المقدمة ، م . س ، ص : 474 ، 475

ولابالتكلف ، وهو مراقبة سرمدية للنفس والجوارح معاً وتربية للنية التي هي في كثير الأحيان «أبلغ من العمل الظاهر» كما في الآثار الصحيحة . هذا الإحساس الذوقي ظهر في السلوكيات الفعلية والقولية للمتصوفة المعتدلين المهتمين بهدي العلم الصحيح ، فارتفعوا واشتهروا وقلدوا ، ورغبوا عن الناس فرغبَ الناس فيهم وخافوا من الله فخوف منهم خلقه ، حاكمهم ومحكومهم ، إذ « لا يخاف الرعية من صالح الملك » ولا ملك حقاً إلا الله .

ثم كانت أقوالهم بلسماً للأفئدة ، تفعل فيها فعل الدواء بالداء ، حتى لو كانت تلك الأقوال المنطوقة من قبلهم معروفة مألوفة ، إذ أن جريانها على ألسنتهم يمنحها لوناً وقبولاً مؤثرين ، فرب كلمة تعلمها قد تقع منك موقعاً بليغاً ، طالما تلفظ بروح مغايرة وفي مقام كذلك ، ألم يقل ذلك خليفة رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب .

إن أفعال المتصوفة ولغتهم تحديداً قد جذبت إليهم الكثير من العامة والخاصة ومن المؤمنين الملحدين على السواء . فنحن نعلم أن روائع الأدب الصوفي وكبريات تصانيفه ، إنما أخرجها إلينا المحققون المستشرقون الذين أسرتهم لغتها وروحانياتها الفطرية اللتان تلامسان الفؤاد . فكان إعجابهم بها بليغاً وتأثرهم بها عميقاً . تلك اللغة وكذا الروح والممارسة الصوفية استمرت في الأمة الإسلامية ، متوارثة متواترة متجددة مع أجيالها المتلاحقة ، آخذة نفس التجلي القديم من حيث وجود المناصرين والمعارضين ، المنحرفين والمعتدلين ، لكن ظل الجدل محسوماً والكفة راجحة لصالح التصوف المعتدل المهتم بهدي الشريعة والاستقامة .

وكالمشرق الإسلامي ، كان المغرب الإسلامي الذي شاع منه نور الإسلام على القارة الأفريقية ، مبدداً لظلمات الوثنية والشرك ، ولقد أدت الحركات الصوفية ، وبخاصة القادرية والتيجانية والشاذلية أدواراً رائدة في التبشير السلمي المقنع بالإسلام ، مما أسفر عن اندماج وتفاعل أكبر وأوثق ، مما كان متوقعاً بين الشمال العربي والجنوب الأفريقي . وهو تفاعل بهرت وأقلقت - في نفس الوقت - بساطته وبراءته وعمقه الدعاة المسيحيين في القارة ، والذين كانوا مدعومين من قبل الكنائس الغربية الموجهة حينئذ للسياسة الأوربية .

كما أدت الزوايا الصوفية في المغرب العربي أدواراً اجتماعية تعاونية أيام الشدة ، وجهادية أيام الغزو الاستعماري ، وعلمية ثقافية إصلاحية أيام الرخاء والاستقرار . ففي موريتانيا والساقية الحمراء مثلاً ، أدت الزاوية القادرية دوراً كبيراً في

شتى المناحي الاجتماعية والجهادية والسياسية في الشرق الموريتاني المحاذي لجمهورية مالي . وفي الجنوب والغرب الموريتاني أدت الزاوية التيجانية أدواراً هائلة ما تزال تؤتي أكلها ، على كافة الأصعدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية بين موريتانيا والسنغال ، ومنهما امتدت إلى كافة دول جنوب الصحراء .

وفي الشمال الموريتاني أدت زاوية الشيخ ماء العينين في القرن التاسع عشر أدواراً جهادية مشهورة ضد الغزوين الإسباني والفرنسي ، هذا فضلاً عن الأدوار الاجتماعية والفكرية والثقافية وما يزال عطاء هذه الطرق ، وغيرها المنبثقة عنها أو من حولها ، متواصلاً . إننا مدعوون اليوم في العالم الإسلامي بعامة والعربي بخاصة ، إلى تفعيل مفاهيم التصوف السني المعتدل ، فليس التصوف عزلة أو رهبانية أو إذلالاً للبدن ، بل هو تمتع مقتصد بنعم الله وتنمية للجوانب الفكرية التأملية الروحية لدى الإنسان ، واحترام لحقوق الإنسان والحيوان والجماد ، حق الاحترام ، وحفاظ بعد ذلك على ما من شأنه بقاء وعطاء هذا الثلاثي .

إنني أرى أن الكثير من مشاكل إدارتنا ومؤسساتنا العامة في العالمين العربي والإسلامي تعاني ما تعاني جراء حضور البعد الإسلامي الشكلي فقط ، الذي لا يمتزج عند المسؤولين بتلك الأبعاد الروحية السامية الغائبة غياباً يكاد يكون مطلقاً ، وهو غياب غاب واستتر معه «الضمير» الوازع الرادع عن إتيان أنواع الفساد والتدمير والتقصير والخيانة التي تخرق مؤسساتنا ومصالحنا العامة ، وتنعكس نتائجها جليلة علينا في الأسرة والمدرسة والجامعة ، وغيرها من المؤسسات الاجتماعية كذلك .

إن التنمية الحقيقية للأبعاد الصوفية المعتدلة اليوم هو باختصار ، إيقاظ أو بعث لتلك الضمائر المستترة أو الميتة فينا منذ زمان .